وقفة في قصر لويس الرابع عشر

مشاهد الشرق والغرب

بواتيه ـ الجزائر ـ مصر

ذهبتُ اليوم الى قصر فرساي . الذي تشد اليه الرحال ، ويؤمه السفار من كل الاقطار : ليشاهدوا عجائب ما صنعته يد المليك القادر ، وخلّفته من المناقب والمآثر. فدخلت فى غمار الناس انتقل فى جنباته ، وانقلب في عرصاته . بين أشجار ممتنة ، وأطيار مرنة. ورياض سندسية صاغت لها الارض أحسن أنوارها ، وأجمل أزهارها . وبحيرات متقنة الصنع تتدفق منهـا المياه فى أيام معدودة كقضبان اللجين ، تزدحم النظّارة لمشاهدتها ويأخذ بألبابهم حسنها . وانصاب مائلة تشهد بعظمة أربابها ومفاخرهم الباقية التي تهز أعطاف أبنائهم ، وتهتف بهم الى اقتفاء آثارهم ، والجري على أعراقهم

طفت هنيهة في هذه المغاني الزاهية والمعاهد التاريخية ، وتوجهت منها الى حجرات القصر وردهاته ، فألقيت نظرة على ما فيها من فرش مبسوطة وزرابيّ مبثونة وتحف منصوبة وستائر موضوعة ، وانتهيت بعد ذلك الى المشاهد التي اقصـدها ، فاجلت فيها بصري ، وتأملت مليا ما نصبه القوم تخليداً لأيامهم المـذكورة ، وأحاديثهم المشهورة . فما راعني منها شيء مثلما راعني مشهد «بواتيه» الذي وقفتُ أمامه موقف العظة والاستعبار . خاشعا كالعابد في محرابه ، بين يدي القائدين : صاحب لواء العرب ، وصاحب لواء الفرنجة ، يتلفت قلبي ولا يرتد اليّ طرفي

أقول في نفسي ليته قُدّر النصر للعرب في هذه المعركة الكبرى : اذن لثبتت

وطأتهم في أوربة ، وبقيت الاندلس عامرة بهم ، وبقيت تلك الحضارة التي درست معالمها الا بقايا طلول تستوقف الناظرين ببهجتها . فيذكر الاجنبي أهلها بالذكر الجميل ، ويبكي العربي قومه فيها بالدمع السخين . فاذا استهلت عبرات هذا وحنَّ الى تلك العهود حنين الشيب الى أيام الشباب ، وقف الاول موقف المنصف المعتبر فقال : ألا ان ذلك العهد الزاهر لم يتجدد ، وأنَّى له أن يتجدد ! أو جرت على لسانه كلمة أناتول فرانس :

« ياليت العرب مضوا قدماً واحتلوا باريس ، اذن لعجلوا بالحضارة وحملوها الى اوربا قبل أجيال ! »

نعم ، لو ان العرب مضوا قدماً لعجلوا بالحضارة ولكان للتاريخ غير هذه السيرة ، ولكن واقعة بواتيه التي صدَّت الحضارة العربية ، كتبت التاريخ الذي نتلوه ، وسجل فيها انقضاء ملك العرب حتى من الاندلس وان كان بعد مئات السنين

انتقلتُ من هذه الساحة الى ساحة أخرى ، وشهدت الملاحم التي دارت رحاها في افريقية بعد مضي احد عشر قرناً على تلك الملحمة : هنالك جيوش نابليون الثالث تقاتل الامير عبد القادر ومن التفَّ حوله من الوزراء المرابطين الذين نفروا معه ليذودوا عن الجزائر فحسن فيها بلاؤهم ، وحمد الناس جهادهم . ولعمري انهم لم يكونوا يذودون عن الجزائر وحدها ، بل عن مراكش وتونس وطرابلس وبرقة والشام أيضاً . فقد كانت الجزائر أول حلقة استولت عليها يد الاستعمار من هذه السلسلة العربية ، ولو أنها سلمت لسلم العرب كلهم . فما أشبه هذا الدفاع بدفاع شارل مارتل عن فرنسة أو عن أوروبة باسرها ، وما أعجب اتفاق العاقبتين أو اختلافهما !

كان نصيب هؤلاء الأبطال المغاوير وأشباههم من اخوانهم القاعدين ما قاله

العلامة ستودرد في كتابه عالم الاسلام الحديث : مهما كانت قلوب المسلمين تهفو الى هذه الطائفة من حماة الحقائق وذادة الحوزة فانهم لم يمدوهم بشيء وتركوهم ينوءون وحدهم بانقال تلك الخطة الشديدة .على أن فريقاً من المسلمين لم يكتفوا بذلك ، بل كانوا يقاتلونهم أو يفتّون فى عضدهم ، وهم يقولون ولا يستحيون أنهم يولون وجوههم شطر قبلة واحدة ويصلون صلاة واحدة!

ثم خرجتُ من القصر بعد أن شهدت مشاهد شرقيه أخرى كمعارك نابليون فى مصر ، ووقوع الشيوخ والنساء على ركائبه ، وفى نفسي من الحزن ما الله عالم به . . .

ولكنني على كل حال حينما كنت ارتاد مذاهب القصر وارجاءه ، وأشاهد نقوشه وتصاويره ، كنت أستصغر الانسان ولا أستكبره ، لانه لا يجد في مفاخره ما يضارع سفك الدماء وازهاق النفوس ، ولا يحسن فى ناظره مرأى كالربوع الخربة والديار المستباحة

باريس نجيب الارمنازى

﴿ الى متى يحسن طلب العلم ﴾

قال منصور بن المهدي للمأمون :

— أيحسُن بنا طلب العلم والأدب ؟

قال : — والله لأن أموت طالباً للعلم خير من أن أعيش قانعاً بالجهل

قال : — والى متى يحسن بى ذلك ؟

قال : — ما حسُنت الحياة بك

محاضرة الابرار لابن العربي (١ : ٥ سنة ١٣٢٤)